

حين يتكلم الغموض

عبد الله الحظرد وأسرار العزيف

اعداد وتقديم

محيي الدين إبراهيم

حين يتكلم الغموض

عبد الله الحظرد وأسرار العزيف

اعداد وتقديم

محيي الدين إبراهيم

الفهرس

تمهيد:

لطالما كان في داخلي شغف لا يهدأ بالعوالم الماورائية، شغف يتجاوز حب الغريب لمجرد الغرابة، ويتخطى الفضول الطفولي في سماع الحكايات المخيفة، ليغدو أقرب إلى عطش فلسفي: كيف يمكن أن نثق أن هذا الوجود الذي نحيا فيه هو كل ما هنالك؟ أليس من الغرور أن نعتقد أننا وحدنا في هذا الكون الشاسع، وأن ما لا تراه عيوننا لا وجود له؟

غير أن شغفي لم يكن متهورًا ولا مجنونًا. كنت دائمًا أضع لنفسي حدودًا، أدرك أن ممارسة الطقوس الغريبة التي لا أفهمها إنما هو لعب بالنار، نار لا تعترف بجهل الداخل إليها، بل تلتهمه كما تلتهم كل من يتجرأ دون علم. كنت أعلم أن هذه الطقوس، إن لم تكن كفرًا صريحًا، فهي مهلكة عظيمة. ولذلك كان شغفي محصورًا في المعرفة: أن أقرأ، أن أستمع، أن أستقصي وأربط وأحلل. كنت أومن أن المعرفة تكفي لاستفزاز العقل وصقل الخيال، وأن من أراد أن يختبر الغموض فليختبره بالفكر لا بالفعل.

في هذا الطريق الطويل، اصطدمت بشخصيات كثيرة وأسماء شغلت العقول عبر التاريخ. لكن شخصية واحدة كانت – وما زالت – الأشد حضورًا وإثارة للدهشة: **عبد الله الحظرد**. ذلك الشاعر اليمني الذي تحوّل في المخيال البشري إلى ساحر مجنون، ومؤلف أخطر كتاب في التاريخ: *العزيف*.

قرأت عنه كثيرًا في المراجع الأجنبية والعربية، ودهشت من حجم الانبهار الذي أثاره وما يزال يثيره بين القرّاء والكتّاب والباحثين في الشرق والغرب. هناك من يراه شاعرًا عبقريًا فقد عقله، وهناك من يراه نبيًّا زائفًا، وهناك من يراه مجرد أسطورة نُسجت حول اسم منسي. لكنني، كلما قرأت عنه، زاد يقيني بأنه كان ضحية.

لقد بدا لي أن الحظرد لم يدخل عالم الماورائيات مختارًا، بل جُرّ إليه جَرًّا، كأن العوالم الخفية هي التي اختارته ليكون شاهدًا عليها. لم يكن يعرف شيئًا عنها حين بدأ رحلته، لكنه وجد نفسه في قلبها، محاصرًا بالأصوات والرؤى. وحين صار شاهدًا عليها وكتب ما كتب، كان مصيره الموت المأساوي: أن يُمزق في وضح النهار في أكبر ساحات دمشق، أمام أعين الناس. أي قدر هذا الذي يجعل الشاعر الجميل الذي غنّى للحياة يُختطف إلى عالم الظلال، ثم يُقتل بهذه الصورة الشنيعة؟

لقد كنت أقرأ عنه فأشعر أنني أقرأ عن مأساة وجودية، أكثر مما أقرأ عن رجل بعينه. مأساة الإنسان حين يقترب أكثر مما ينبغي من أسرار لا يحتملها. ورغم أنني وصلت إلى كثير من المعلومات عنه، وجمعت الروايات والأساطير، فإني حين أشاركها معكم اليوم إنما أفعل ذلك مع من يشتركون معي في هذا الشغف الحذر: شغف المعرفة لا شغف الممارسة.

وما يثير دهشتي أن عبد الله الحظرد، رغم مرور قرون على رحيله، ما زال يثير الفضول، وما زال يُبهر الشعراء والكتاب والباحثين. بل إنه، في

رأيي، يتفوق بما كتبه في القرن الثامن على كل ما كتبه خيال العلم الحديث في عصر التكنولوجيا. إنّ مشاهد *العزيف*، بما تحمله من رعب كوني، لا تقتصر على شياطين ووحوش، بل تتجاوزها إلى رؤى تفوق خيال العقل المعاصر نفسه.

إننا حين نقرأه، لا نقرأ عن وحوش تخرج من تحت الأرض أو جن يسكنون الخرائب، بل نقرأ عن تصدعات في نسيج الواقع نفسه، وعن كيانات تسكن بين الأبعاد، تنتظر لحظة عودتها. هذا هو ما يجعل نصوصه مخيفة: أنها لا تستفز خوفنا من العادي، بل خوفنا الأعمق من المجهول الكوني.

ولعل أهم ما خرجت به بعد سنوات من البحث هو أن عبد الله الحظرد ليس مجرد اسم في التاريخ، ولا مجرد شخصية غامضة يصفها البعض بأخطر رجل في التاريخ. إنه **بوابة**. بوابة لفضول الإنسان في كل زمان، لمعرفة ما غاب عنه. هو مرآة شغفنا بالماوراء، صورة لذلك الجانب فينا الذي لا يقنع بالظاهر، بل يريد أن يخترق كل ستار، ولو كان ستار العدم.

إنني أكتب هذه السيرة لا بدافع الإعجاب الأعمى، ولا بدافع التبرير، بل بدافع الحكيم الذي يرى في حياة الحظرد درسًا مزدوجًا: أن المعرفة قوة، لكنها قد تكون أيضًا لعنة. أن الفضول هو أجمل ما في الإنسان، لكنه قد يكون كذلك أفظع ما فيه.

وبين هذين الحدين – بين الجمال واللعنة – تتحرك قصة عبد الله الحظرد. ولهذا فإنها ليست سيرة شاعر فقط، ولا سيرة ساحر فقط، بل سيرة الإنسان في بحثه الدائم عن ما وراءه.

مقدمة:

منذ أن عرف الإنسان صوته الأول، كان هذا الصوت محمّلًا برغبةٍ لا تشبع: الرغبة في اقتحام الماوراء. لم يكن العقل في بداياته سوى آذانٍ منصتة إلى الهمس الخفي: أصوات الريح، ارتجاف الأشجار، عواء الذئاب، وصدى المجهول في أعماق الليل. تلك الأصوات صارت فيما بعد أساطير وحكايات، ثم نصوصًا مقدسة وطقوسًا سحرية، لكن جوهرها ظل واحدًا: إنّ الإنسان مخلوقٌ مسكون بفضول أبدي، لا يكتفي بما يُرى، بل يتوق دائمًا إلى ما لا يُرى.

وسط هذا الشغف الكوني، تبرز سيرة عبد الله الحظرد، العربي الملقب بالمجنون، أخطر ساحر في التاريخ، ورمز المعرفة الملعونة التي لا تزال تفتن القراء والعلماء منذ القرن الثامن حتى اليوم. سيرةٌ كتبت بمداد الدم والرعب، عن السحر الأسود وتعاليم التواصل مع كائناتٍ أخرى، أزلية، لا مبالية بالبشرية. يقال إن كتابه *العزيف* هو أقدم سرد "كامل" لما عُرف لاحقًا بـ*النيكرونوميكون*: مجلّد مخيف، مُغطى بجلدٍ غريب، بمشابك معدنية، محفوظ في أقبية مظلمة لا يُسمح باستعارته، ولا يراه إلا من حصل على إذن خاص من مديري المجموعات السرية في مكتبات الغرب. معظم صفحاته رقوق متعفنة، لكن الكلمات التي تحملها لا تزال تتنفس وكأنها كُتبت أمس.

إن محاولات حرق هذا الكتاب أو إخفائه باءت بالفشل عبر القرون. وكأن الكتاب نفسه يمتلك إرادةً للعودة، لينتصب أمام كل جيلٍ جديد

كمرآة للفضول البشري الملعون. وما يثير الدهشة أن الناس – رغم معرفتهم بالمخاطر – يندفعون إلى قراءته. كأنهم يفتشون عن الحقيقة حتى لو قادتهم إلى الجنون أو الهلاك. إنه شغف قديم يتجاوز الخوف، شغف يجعل البشر يقفون وجهًا لوجه أمام الماورائيات، لا ليكتفوا بالمشاهدة، بل ليحاولوا الانخراط فيها.

وما يضيف إلى رهبة الحظرد وكتابه أنّ المراجع الأجنبية، وخاصة العبرية والمرويات الغنوصية، تصوّر *العزيف* على أنه رمز للرعب الكوني. إنه لا يصف فقط طقوس السحر الأسود، بل يضع البشرية في مواجهة حقيقةٍ مرعبة: أنّها ليست مركز الكون، بل مجرد جزء ضئيل في فضاء شاسع لا مبالٍ. في هذا الفضاء تسكن كائنات أقدم من الأرض ذاتها، تنتظر بصبرٍ أن تعود لتحكم حيث يحكم الإنسان الآن.

في إحدى المخطوطات المترجمة، يتردد النص التالي، وهو من أكثر المقاطع التي تكثف فلسفة الرعب الكوني:

"لا ينبغي أن نفكر أنّ الإنسان هو الأقدم أو الأخير من سادة الأرض، أو أن الجزء الأكبر من الحياة يسير في عزلة. لقد كان القدماء، والقدماء هم، وسيكونون دومًا. ليس في المساحات التي نعرفها، ولكن بينها، يمشون هادئين وبلا أبعاد، غير مرئيين لنا. يوغ سوثوث يعرف البوابة. يوغ سوثوث هو البوابة، هو المفتاح وحارس العتبة. الماضي والحاضر والمستقبل جميعهم واحد فيه. إنه يعرف أين اخترق القدماء القديم، وأين سيخترقون ثانية. يعرف أين وطئوا حقول الأرض، وأين ما زالوا

يمشون، ولماذا لا يمكننا أن نراهم. أحيانًا يشمّ البشر رائحتهم، لكن لا أحد يدرك أشكالهم، إلا من حملوا نسلهم بين البشر. إنهم يثنون الغابة ويسحقون المدينة، دون أن تُرى اليد التي تضرب. لقد عرفهم كاداث في برده القارس، وجزر المحيط الغارقة ما زالت تحمل أحجارهم المختومة. كثولو العظيم ابن عمهم، ومع ذلك لا يراهم إلا غامضًا. شوب نيغوراث تبقى شاهدة على قذارتهم. إنهم يسيرون بيننا، وأيديهم على حناجرنا، لكننا لا نراهم. يوغ سوثوث هو مفتاح البوابة التي تلتقي عندها الأجرام السماوية، حيث حكموا وسيمكثون من جديد. بعد الصيف شتاء، وبعد الشتاء صيف. إنهم ينتظرون بصبرٍ وقوة، لأنهم سيحكمون هنا من جديد."

هنا يبرز معنى الحظرد وكتابه: ليسا مجرد أثر من الماضي، بل رمزين أبديين للمعرفة المحظورة. سيرة الحظرد و*العزيف* تمثلان الشغف الإنساني الذي لا يهدأ، والرهبة البدائية من المجهول، وتكثفان صورة الرعب الكوني الذي يجعل القارئ، حتى بعد قرون، يشعر أن الكلمات ما تزال حية، وأن اليد غير المرئية لا تزال قريبة من عنقه.

إن هذا الكتاب الذي بين أيدينا ليس بحثًا في شخصية عابرة، بل محاولة لفهم اللغز الذي شغل العالم قرونًا: من هو عبد الله الحظرد، وكيف استطاع أن يترك وراءه أثرًا لا يزال يُقرأ، ويُحظر، ويُحرق، ثم يُبعث من جديد؟ إنه بلا جدال أخطر وأشهر شخص في تاريخ

الماورائيات، الرجل الذي تجرأ على النظر إلى الهاوية دون أن يغمض عينيه: عبد الله الحظرد.

الفصل الأول

ميلاد العربي المجنون – من صنعاء إلى الصحراء

من بين الأسماء التي هامت في ذاكرة الإنسانية، يظل اسم **عبد الحظرد** علامة ملتبسة، أشبه بشقٍّ في صخرة الزمن، يطلّ منه دخان كثيف من الرعب والدهشة. لم يكن مجرد شاعر مجنون كما أحب أن يصفه معاصروه، ولا مجرد ساحر يعبث بالتعاويذ كما أراد خصومه أن يُشيعوا عنه. بل كان كائنًا آخر، رجلًا تحوّل إلى أسطورة، لأنّه – كما يقال – رأى ما لم يستطع أن يراه البشر، وتجرأ على اقتحام ما عجزت عن اقتحامه الأمم والأنبياء والملوك.

وُلد عبد الحظرد في **صنعاء**، في بدايات القرن الثامن الميلادي، في زمنٍ كان العالم العربي فيه يتقلب بين زهو الفتوحات الإسلامية وارتجاف العقول أمام الأساطير الموروثة. صنعاء لم تكن مجرد مدينة عادية، بل كانت ملتقىً للجن والإنس في مخيلة أهلها؛ مدينة جبال عالية، يظللها قمرٌ يزداد في لياليها غرابة، حتى أن الشعراء وصفوه بأنه "عين تترصد البشر". في هذه الأجواء أبصر الحظرد النور، وكأن السماء قد اختارته ليكون شاهدًا على ما لا يقال.

منذ طفولته، أحاطت به إشارات غير عادية. روي عن أمه أنها رأته في مهده يبتسم لليل، كأنّه يحدّثه. وروي عن أبيه – وكان راعيًا – أنّ الصبي كان يهرب من البيت ليلًا، ليجلس في المقابر، يسمع أصواتًا لا يسمعها

أحد. وربما لهذا أطلق عليه أهل الحيّ لقب "الغريب"، قبل أن يصبح لاحقًا "العربي المجنون". كان يسمع **العزيف**؛ ذلك الصوت الليلي الذي ينسبه العرب إلى عواء الجن، ويبدو أنّه لم يكن سماعًا عابرًا، بل كان نداءً متواصلًا يفتح أمامه أبوابًا لم تفتح لغيره.

شبَّ الفتى وفي قلبه عطش غريب إلى ما وراء المعرفة البشرية. لم يكن يقنع بشروح الفقهاء ولا بحكايات الشعراء، بل كان يفتش عن الخيط الخفي الذي يصل الأسطورة بالحقيقة. كان يسأل معلميه: لماذا ترتعش النجوم كأنها إشارات؟ لماذا يصرّ الناس على أن الجن يسكنون الصحراء، بينما هو يشعر أنهم يسكنون كل مكان؟ لم يجد جوابًا إلا في الصمت، لكن الصمت نفسه كان يغريه.

لم تمض سنوات حتى بدأ رحلاته الكبرى. توجه أولًا إلى **أطلال بابل،** حيث الحضارة التي طمرها النسيان وبقيت نقوشها مثل جروحٍ مفتوحة في جسد الأرض. هناك، رأى التماثيل المكسورة، وقرأ على جدران معابد مهجورة بقايا طلاسم غامضة. لم يكن ينظر إليها بعين الرحالة العادي، بل بعين من يرى وراء الحروف طاقةً خامدة تنتظر من يوقظها. ثم زار **ممفيس** في مصر، حيث كان السحر الكهنوتي قد بلغ ذروته في الأزمنة الغابرة. وهناك، في سراديب مظلمة، لمس جدرانًا كأنها تتنفس، وتعلم أن كل حجر يخبئ ذاكرة، وأن الكهنة لا يموتون تمامًا، بل يبقون أسرى في أسرارهم.

لكن المدن لم تُشبع فضوله، فشدّ الرحال إلى الصحراء؛ الصحراء التي ستصنع منه ما صار عليه. عشرة أعوام قضاها في "الفضاء الفارغ"، وهو الاسم الذي أطلقه القدماء على صحراء قاحلة في جنوب الجزيرة. لم تكن تلك السنوات عزلةً بالمعنى العادي، بل كانت عبورًا في متاهةٍ لا تحدّها حدود. كان يبيت وحيدًا على رمالٍ تغني بالعزيف، فيسمع أصواتًا تخرج من أعماق الأرض، ويرى سرابًا يتشكل كمدنٍ تنهض ثم تختفي.

هناك، في تلك الصحاري، وُلدت لغته الخاصة؛ لغة ليست من العربية ولا من السريانية، بل خليط من أصوات أولى، أشبه بنبضٍ كوني. كان يرددها في الليالي القمرية، فتتحرك الرمال من حوله، وتشتعل النار بأشكالٍ غريبة. ويقال إنه استطاع عبر هذه اللغة أن يستحضر كائناتٍ لا تُرى، يسمّيها هو بأسماء لم تُعرف من قبل: **يوغ سوثوث** و **كثولو**.

لم يكن عبد الحظرد في تلك الفترة مجرد متعبدٍ أو ناسك، بل صار مخلوقًا بين عالمين: عالم البشر، وعالمٍ آخر لا يعرفه إلا هو. كان يدوّن على رقوقٍ ما يسمعه ويراه، ويُقال إن هذه الرقوق صارت لاحقًا النواة الأولى لكتاب **العزيف**.

الناس من حوله لم يفهموه. رآه البعض نبيًا ضلّ طريقه، ورآه آخرون ساحرًا مرسَلًا من قوى غامضة. لكن المؤكد أن هيبته كانت تثير الرعب. كان يدخل مدينة صغيرة فيفرّ الأطفال من وجهه، ويهمس الكبار بأنّ في عينيه نارًا غير بشرية. ومع ذلك، لم يكن متكبرًا، بل كان يحمل في

داخله شعورًا مريرًا بالوحدة. فقد كان يدرك أنه يرى ما لا ينبغي أن يُرى، وأن هذه الرؤية ليست نعمة، بل لعنة تتضاعف كلما ازداد علمًا.

في هذه السنوات، بدأت تتشكل صورة "العربي المجنون". لم يكن الجنون ضعفًا في عقله، بل اتساعًا مفرطًا في وعيه. لقد تجاوز حدود ما يحتمله العقل البشري، فانفلت من قيود المنطق، وراح يهيم بين احتمالاتٍ لا تنتهي. الجنون هنا لم يكن مرضًا، بل عتبةً عبر منها إلى عوالم أخرى.

ويُروى أن الحظرد قد شهد في صحراء الدهناء مشهدًا غريبًا: مدينةً من أعمدةٍ عظيمة، يلمع رخامها تحت الشمس كأنها سراب، لكنها لم تكن سرابًا. إنها **إيرِم ذات العماد**، المدينة الأسطورية التي ذكرها القرآن. قيل إنه دخلها، ورأى تحت أنقاضها سجلاتٍ وأسرارًا تعود إلى جنسٍ أقدم من البشر. ومنذ تلك اللحظة، لم يعد الحظرد كما كان. لقد لمس الحقيقة التي لا تحتمل: أن الإنسان ليس أول ساكنٍ للأرض، وأن قبله كانت أجناسٌ أخرى، ربما لا تزال تنتظر خلف الستار.

عاد عبد الحظرد من الصحاري أكثر عزلةً، وأكثر جنونًا في نظر الناس. لكن في داخله كان يعلم أنه صار على أعتاب كتابة أعظم ما يمكن أن يكتب: كتاب العزيف. الكتاب الذي لن يكون مجرد نص، بل سيكون مرآةً للرعب الكوني، وشهادةً على ما رآه ولم يره غيره.

هكذا تتكون صورة بدايات الحظرد: طفلٌ يسمع ما لا يسمعه الناس، شابٌ يقرأ في خرائب بابل وممفيس، ورجلٌ يهيم عشر سنوات في

الصحاري حتى يكتشف اللغة التي تفتح الأبواب. هل كان نبيًّا ساقطًا أم ساحرًا متمرّدًا؟ هل كان جانيًا فتح على البشر بوابة الرعب، أم ضحيةً اصطادته قوى ماورائية لتمارس به لعبتها؟ كل هذه الأسئلة ستظل مفتوحة. لكن ما لا خلاف عليه أن عبد الحظرد لم يكن إنسانًا عاديًا. لقد كان **أول من نظر إلى الهاوية مباشرة، ولم يَصعق البصر وحده، بل صُعقت الروح أيضًا.**

الفصل الثاني

العزلة والرؤيا – اللغة التي تفتح البوابات

في تاريخ البشرية، تتكرر لحظة واحدة بصور مختلفة: لحظة ينسحب فيها إنسانٌ من ضجيج قومه ليقف في مواجهة العدم. في تلك اللحظة لا يعود العالم الخارجي هو مركز الوجود، بل تتحول الصحراء أو الجبل أو الكهف إلى مرآة كونية. هكذا فعل الحكماء والأنبياء، وهكذا فعل أيضًا المهرطقون والمجانين. وعبد الحظرد، العربي الملقب بالمجنون، يقف في نقطة الالتباس هذه: أيّ نوع من البشر كان حين انسحب إلى الصحراء عشرة أعوام كاملة، لا ليعبد إلهًا مألوفًا، بل ليحاور كائناتٍ لم يعترف بها بشر من قبله؟

لقد كان دخوله إلى الصحراء خروجًا من التاريخ المألوف. الصحراء عند العرب موطن الجن والأصوات، أما عند الفلاسفة فهي فضاء اللامحدود حيث تتكشف الذات أمام الفراغ. هناك، بعيدًا عن القرى والمدن، استمع الحظرد إلى العزيف، ذلك الصوت الذي اعتبره معاصروه عواءً للشياطين، لكنه بالنسبة له كان لغةً كاملة، نداءً من وراء النجوم. كان يجلس في ليالٍ مقمرة، يردّد همهمات غامضة، فيرى الرمال تتحرك كما لو أن الأرض تتنفس، ويرى النار المشتعلة تتخذ أشكالًا لم يعرفها العقل البشري.

اللغة القديمة: مفتاح البوابات

في تلك السنوات العشر، بلور الحظرد ما أسماه "اللغة القديمة". لم تكن لغة مكتوبة على نحو ما نفعل نحن، بل طلاسم وأصوات أولية، أشبه بصدى الأزمنة البدائية. هذه اللغة، كما يروي في ما تبقى من شهادته، لم تكن أداة للتواصل بين البشر، بل مفاتيح لبوابات بين العوالم. كل كلمة فيها تحمل ثِقْل عالمٍ بأكمله.

عبر هذه اللغة تعرّف على ثلاثة رموز أساسية: **أزا، أغا، بندر.**

- **أزا**: رمز العهد الكوني، العلامة التي تذكّر الكيانات القديمة بالميثاق الأول بينها وبين جنسٍ ما قبل البشر.
- **أغا**: المفتاح الذي يفتح قوى القدماء، ويجعلها تستجيب لمن يتقنه.
- **بندر**: رمز "المراقب"، الكائن الذي يسهر على من يستدعي القوى، لكنه ينقلب على صاحبه إن استُدعي بلا حذر.

هذه الرموز لم تكن حروفًا جامدة، بل كانت أشكالًا مرسومة على الحجر والمعادن، تُنقش وتُردد مع أصوات مخصوصة. وقد أوصى الحظرد ألا يُستخدم "بندر" منفردًا، إذ يخرج المراقب عن السيطرة ويهلك صاحبه. إن هذه التحذيرات تكشف أنه لم يكن مجرد عابث بالسحر، بل كان عارفًا بخطورة ما بين يديه.

طقوس الاستحضار

يروي بعض تلاميذ الأخبار – ممن سمعوا روايات متفرقة عنه – أنّه كان يُقيم طقوسًا غامضة في الصحراء: دائرة من النار، كلمات بلغة لا تُفهم، وحيوانات تُضحى بها للدم. كان يجلس الساعات الطوال مغمض العينين، يتهامس بأصواتٍ لا بشرية. ثم يعود إلى وعيه مرتجفًا، كأن شيئًا مرّ من خلاله. لم يكن يخرج من الطقس إنسانًا كاملًا، بل رجلًا منهكًا، عيناه تلمعان بلمعانٍ مرعب، كأنّه رأى مشهدًا لا يحتمله الفؤاد. وقد وصلتنا إشاراتٌ عن استحضاره لكيانات وصفها بأسماء لم تُعرف في أي نص ديني أو أسطوري سابق: يوغ سوثوث، كثولو، وأخرى لا يمكن نقلها إلى لسانٍ بشري. أهي أرواح؟ آلهة؟ شياطين؟ أم كلها أسماء لشيء واحد يتخذ أشكالًا متعددة؟ هنا يتبدى السؤال الحاسم: هل كان الحظرد يستمد سلطته من معرفة خالصة، أم من عهدٍ مظلم عقده مع قوى ماورائية؟

شهادة العربي المجنون

النص الذي يعرف باسم "شهادة العربي المجنون" – وهو ما تبقى من أوراقه – يقدم صورة غامرة لهذا التوتر. في شهادته، يبدو عبد الحظرد مترددًا بين الفرح بالاكتشاف والخوف من العاقبة. يصف كيف سافر "تحت البحار" ورأى آثار حضاراتٍ بائدة، وكيف صعد إلى "عوالم الإيجيجي"، كائنات السماء القاسية. يتحدث عن استدعاء الشياطين والأموات، وعن هروبه من "آزاغ-تحوت"، الساحر الأسود. لكن خلف

هذا كله يطلّ وجه إنسانٍ مُتعب، شيخٍ يكتب وهو يلهث كمن يطارده الموت.

الشهادة لا تمنحنا جوابًا يقينيًا: هل كان رجل حكمة ينقل إلينا سرًّا كونيًا، أم كان عقلًا مختلًّا يرى في الهلاوس بوابات حقيقية؟ لكن ما يميزها هو إصرار صاحبها على أنّ ما رآه ليس خيالًا، بل وقائعٌ حقيقية ستعود لتطارد البشرية.

بين النبوّة والهرطقة

وهنا يظهر جوهر المفارقة: الحظرد يقف في منطقة التباس عميقة. فالأنبياء انسحبوا إلى الجبال والصحاري ليأتوا برسالات خلاصية، أما هو فانقطع في الصحراء ليأتي بكتابٍ ليس فيه خلاص، بل رعب وتهديد. ومع ذلك، فإن ملامح النبوّة حاضرة: لغة جديدة، رؤيا كونية، مواجهة مع قوى غيبية. الفرق أنّ الأنبياء نسبوا ما رأوه إلى إلهٍ رحيم، بينما نسب الحظرد ما شهده إلى كيانات لا اسم لها في كتب التوحيد.

هل كان نبيًا رفضه قومه، أم مهرطقًا انتحل شكل النبوة ليخدم قوى أخرى؟ ربما الاثنين معًا. لقد كان نبيًا بالمعنى الواسع، إذ نقل إلى البشرية خطابًا من خارجها، لكنه كان مهرطقًا لأنه نسب الخطاب إلى آلهة لا يطيق العقل الإيماني وجودها.

السلطة والمعرفة

يبقى السؤال: من أين استمد سلطته؟ من المعرفة أم من الميثاق المظلم؟ إن استقراء شهادته يقود إلى أنّه لم يكن عبدًا أعمى لتلك

الكيانات، بل كان واعيًا بقدرته على توجيهها. لقد قال: *"لقد وجدتُ الخوف... لقد وجدتُ البوابة المؤدية إلى الخارج، والتي يحرسها القدماء."* هنا يتحدث بلسان من يعرف، لا بلسان من يخضع. ومع ذلك، فإن كل معرفةٍ تفتح بابًا، وكل باب يقود إلى هاوية.

قد تكون قوته مزيجًا من الاثنين: معرفة أولى اكتشفها بذكاءه وعزلته، وميثاق غير مُعلن مع قوى وجدت فيه أداة لتحقيق حضورها. لقد كان الجسر بين العالمين، لكنه لم يكن يعرف ما إذا كان يبنيه بوعي أو يُبنى على حسابه.

خاتمة الفصل

عشر سنوات في الصحراء جعلت من عبد الحظرد أكثر من شاعر وأكثر من ساحر. لقد صار شاهدًا على سرٍّ كوني، وناقلًا للغة لا تشبه لغات البشر. خرج من العزلة وهو محمّل برموز وأختام، وشهادة متوترة بين الحكمة والجنون. وهنا، يتجسد السؤال الذي سيلازمه حتى النهاية: هل كان عبد الحظرد ضحية المعرفة الملعونة التي سعت إليه، أم جانيًا فتح بإرادته أبوابًا لا ينبغي أن تُفتح؟

ما نعرفه يقينًا هو أنّه منذ تلك السنوات العشر في الصحراء، لم يعد التاريخ البشري كما كان. فقد كُتب أول فصل من **العزيف**، الكتاب الذي سيصبح لاحقًا أشد المخطوطات رعبًا في ذاكرة الإنسانية.

الفصل الثالث

دمشق وكتابة العزيف

إذا كانت الصحراء قد صنعت من عبد الحظرد كائنًا يتجاوز حدود البشر، فإن دمشق كانت المهد الذي أطلق فيه ميراثه الأخطر: كتاب **العزيف**. ليست كل المدن تصلح مسرحًا للكتابة الملعونة، لكن دمشق – بتاريخها المتشابك بين حضارة الرومان وظلال الغسق الأموي – منحت الحظرد المناخ الذي جمع بين العلم الظاهر والسحر الخفي. في أزقتها، حيث تختلط المدارس الفقهية بحكايات السحرة، وحيث المعمار يشهد على آلاف السنين من الدم والدهشة، جلس عبد الحظرد يخطّ كتابه، كأنه يسجل شهادة العالم على الهاوية.

وصوله إلى دمشق

لم يصل الحظرد إلى دمشق باعتباره شاعرًا عاديًا أو رحّالة متصوفًا. بل دخلها في صورة الشيخ الغريب، الذي تتهامس عنه الألسنة بأنه رأى "إرمِ ذات العماد"، وعاشر الجن في صحارى الدهناء، وحفظ لغة لم يعرفها بشر. كان بعض العلماء يستضيفونه في مجالسهم بدافع الفضول، لكنهم ما كانوا يلبثون أن ينفروا من أحاديثه. فهو يتحدث عن آلهة أقدم من الخليقة، وعن مخلوقات ما تزال تترصد خلف النجوم، وعن أبواب يمكن فتحها بالكلمة الصحيحة.

دمشق بالنسبة له لم تكن مجرد مدينة، بل كانت نقطة التقاء: ملتقى التراث العربي بالإغريقي، ملتقى علوم الفلك والشريعة، ملتقى السحر والأسطورة. وقد وجد فيها المكان المناسب ليحوّل رؤاه المتناثرة إلى كتاب شامل، يضم ما رآه في الصحاري وما تعلمه من النقوش القديمة وما أوحته إليه الكيانات التي استحضرها.

الكتابة بدم ونار

يُقال إن الحظرد لم يكتب العزيف بالحبر المعتاد، بل بخلائط من دم الحيوانات والمواد الغريبة. وربما لهذا ارتبط الكتاب منذ البداية برائحة غريبة لا تزول. كان يخطّ على الرقوق خطوطًا ملتوية، رموزًا لا تشبه العربية ولا السريانية، لكنها تنبض بحياة خاصة. من يقرأها يشعر كأنها تتحرك أمام عينيه. لم يكن النص مجرد كلمات، بل كان طقسًا مكتوبًا. وقد أشار بعض من نقلوا عنه إلى أن عملية الكتابة نفسها كانت جزءًا من الاستحضار. فكل فصل يكتبه لم يكن مجرد تسجيل لما مضى، بل كان إعادة فتح للبوابة ذاتها التي تحدث عنها. وهكذا صار العزيف ليس فقط سجلًا للرؤى، بل أداة فعلية لاستدعاء الكيانات التي يتحدث عنها.

لغة العزيف

ما الذي يميز لغة العزيف؟ إنها لغة تتقاطع فيها ثلاثة مستويات:

1. **العربية الظاهرة:** النصوص التي تبدو للوهلة الأولى أشعارًا أو حِكَمًا، لكنها تنطوي على إيحاءات.

2. **الطلاسم المرسومة:** رموز أزّا وأغا وبندر، وأشباهها، التي تتكرر في مواضع بعينها لتعمل كمفاتيح.
3. **اللغة القديمة:** أصواتٌ لا يمكن نطقها إلا في طقس مخصوص، وهي أشبه بالذبذبات الصوتية التي تؤثر في الوعي والمادة معًا.

بهذا المعنى، لم يكن الكتاب مجرد مخطوط، بل كان "آلة لغوية". من يتلوه لا يقرأ فحسب، بل يشارك في طقسٍ كوني. ولعل هذا ما يفسر خوف العلماء منه، ورغبة السلطات الدينية في محوه.

الشهادات المروعة

يروي بعض الرواة أن الحظرد جُرّب كتابه في دمشق أمام قلة من خاصته. ففي إحدى الليالي، اجتمعوا في بيتٍ عند سفح قاسيون، وتلا عليهم بعض الطلاسم. فجأة، اهتزّت الجدران، وظهر في زاوية الغرفة ظلّ هائل لا يطابق شكلًا بشريًا. فزع الحاضرون وفرّوا، بينما ظل الحظرد جالسًا كأنّه يحدّث الظل. لم يعد أحدهم بعدها كما كان. بعضهم مات بعد أيام، وآخرون هاموا في الشوارع كالسكارى.

هذه الشهادات – مهما بدا فيها من مبالغة – تشير إلى أن الكتاب لم يكن حبرًا على ورق، بل بوابة حقيقية.

بين الفلاسفة والفقهاء

موقف الفقهاء من الحظرد كان واضحًا: هرطقة وكفر. لكن المثير أن بعض الفلاسفة والباحثين في العلوم القديمة لم يجرؤوا على تكذيبه

كليًا. فقد رأوا أن معرفته باللغات البائدة والأسرار الكونية تتجاوز حدود المصادفة. بعضهم قال: "لو لم يكن مجنونًا، لكان أعلم الناس." وهنا تكمن المفارقة: العلم والجنون عنده صارا وجهين لعملة واحدة.

النهاية في دمشق

أما نهايته، فقد كانت أشد غموضًا من حياته. ففي أحد أيام عام 738م، بينما كان يمشي في وضح النهار بسوق دمشق، هجم عليه كائن غير مرئي أمام المارة. قيل إنهم سمعوا صراخه ورأوا جسده يتمزق في الهواء، ثم اختفى فجأة. لم يبق منه أثر سوى الدماء المتناثرة على الأرض. لم يجرؤ أحد على جمع أوراقه في ذلك اليوم، لكن بعض تلامذته المجهولين هرّبوا المخطوطات. وهكذا نجا العزيف، بينما هلك مؤلفه.

العزيف: شهادة أم لعنة؟

هل كان العزيف شهادة رجلٍ رأى ما لا يُرى، فأراد أن ينقله للناس؟ أم كان لعنة مكتوبة، تستدعي القوى السوداء لمن يجرؤ على قراءتها؟ لعل الإجابة في الاثنين معًا. لقد كان العزيف مرآة لعبد الحظرد نفسه: مزيجًا من الحكمة الماورائية والجنون المدمر، من النبوة والهرطقة، من الضحية والجاني.

في دمشق وُلد الكتاب، لكن في دمشق أيضًا مات صاحبه. وكأن المدينة لم تحتمل أن تحتضن طويلًا هذا الغريب الذي أراد أن يجعل من الكلمات بوابات، ومن اللغة نارًا تحرق القلوب.

الفصل الرابع

مصير الكتاب – من دمشق إلى العالم

حين نُزف جسد عبد الحظرد في شوارع دمشق عام 738م، كان كثيرون يظنون أن القصة انتهت بموت مؤلفها. لكن ما لم يفهموه أنّ موت الجسد لا يعني موت الكلمة، خصوصًا إذا كانت الكلمة نفسها مفتاحًا للبوابات. فالعزيف، منذ لحظة ولادته، لم يكن مجرد مخطوط، بل كيان مستقل، حيٌّ بطريقة غامضة، ينجو كما تنجو الكائنات التي تعرف كيف تغيّر جلدها.

المشهد الأول: القسطنطينية – 950م

بعد قرنين من اختفاء عبد الحظرد، ظهر كتابه في قلب الإمبراطورية البيزنطية. هناك، في القسطنطينية، التقطه الراهب والفيلسوف **ثيودوروس فيليتاس**، رجلٌ مفتون بالعلوم القديمة والكتابات الغنوصية. شرع في ترجمته إلى اليونانية تحت عنوان **نيكرونوميكون** – "قانون الموتى".

فيليتاس لم يتعامل مع النص كمجرد أثر شرقي غريب، بل كحجر زاوية لفهم الكون. وقد ترك في هوامشه تعليقات تشير إلى أنه جرّب بعض طلاسمه. ومع ذلك، فإن ترجمته، رغم دقتها، كانت أشبه بفتح بوابة جديدة: صار العزيف يطلّ بوجهٍ يوناني، ويستعد للانتشار بين مدارس الفلسفة المظلمة.

لكن القسطنطينية لم تحتمل هذا العبء طويلًا. فسرعان ما وصلت الأخبار إلى الكنيسة، التي رأت في الكتاب تهديدًا خطيرًا للعقيدة.

المشهد الثاني: الحريق العظيم – 1050م

في منتصف القرن الحادي عشر، أصدر **البطريرك ميخائيل** أمرًا صارمًا: حرق كل نسخة من *نيكرونوميكون*. اجتمع الناس في ساحة كبرى، وأُلقيت المخطوطات في النيران. تصاعد دخان أسود كثيف، يُقال إن رائحته لم تكن رائحة ورقٍ محترق، بل رائحة لحمٍ بشري. بعض الشهود أقسموا أنهم سمعوا صرخات من داخل النار، كأن الكتاب ذاته يتألم.

غير أن ما يحدث دومًا مع الكتب الملعونة حدث مع العزيف أيضًا: نجت نسخة واحدة، لم يعرف أحد كيف. هناك من قال إن فيليتاس خبأها في قبوٍ سري. وهناك من رأى أن الكتاب نفسه اختار أن ينجو، متحوّلًا من رمادٍ إلى نسخة أخرى، كالمخلوقات التي تعيد خلق نفسها.

المشهد الثالث: اللاتينية – 1228م

في أوائل القرن الثالث عشر، ظهر الكتاب مرة أخرى على يد المترجم الدنماركي **أولاوس وورميوس**. ترجم النص إلى اللاتينية، اللغة التي كانت مفتاح أوروبا في العصور الوسطى. ومنذ تلك اللحظة، لم يعد العزيف كتابًا شرقيًا غامضًا، بل صار جزءًا من الموروث الغربي المظلم. وورميوس كان واعيًا بخطورة ما بين يديه. كتب في مقدمة ترجمته: *"هذا الكتاب ليس من صنع البشر، بل هو أثر من آثار القدماء. من يقرأه يدخل في عهدٍ مع قوى لا ترحم."* ومع ذلك، كان الحظر أسرع. ففي

عام 1232 أصدر البابا **غريغوري التاسع** مرسومًا بتحريم اقتناء الكتاب ومعاقبة من يقرأه.

لكن كما يحدث دومًا، فإن الحظر لا يمنع الانتشار، بل يجعله أكثر إغراءً. فقد تسللت نسخ خفية من العزيف اللاتيني إلى مكتبات خفية في باريس وفلورنسا، ووجدت طريقها إلى أيدي السحرة والباحثين في علوم الظل.

المشهد الرابع: الهامش الأوروبي

خلال القرون التالية، صار *نيكرونوميكون* اسمًا يتردّد في الهوامش: في رسائل السحرة، في حواشي الفلاسفة، في التعاويذ الغامضة التي ظهرت في محاكم التفتيش. كلما سُئل أحد عن مصدر تعويذة مرعبة، كان الجواب يلمّح إلى "الكتاب الأسود". ومع ذلك، ظلّ وجوده غير مؤكد، كأنه شبح يطلّ من بين رفوف المكتبات ثم يختفي.

المشهد الخامس: العالم الجديد

مع مطلع العصر الحديث، ظهرت إشارات لنسخ متناثرة في مكتبات أوروبا. نسخة في **المكتبة الوطنية بباريس**، أخرى في **هارفارد**، وثالثة في مكتبة **بوينس آيرس**. لكن أكثر النسخ إثارة للجدل كانت تلك التي وُجدت في مكتبة **ميسكاتونيك** بولاية ماساتشوستس الأمريكية. هناك، في القرن العشرين، صار العزيف جزءًا من إرث الأدب الرعب نفسه، عبر خيال لافكرافت الذي التقط الأسطورة وصاغها في شكل جديد.

لكن خلف كل هذه الرحلات، ظلّت هناك أسطورة: أن نسخة واحدة هي الأصلية، النسخة التي نجت من حريق 1050، والتي لم تُحرق أبدًا، بل ظلت تتنقل ككائن حي، تختار قراءها وتغويهم، ثم تُفنيهم.

الكتاب ككائن حي

ما الذي يجعل العزيف ينجو في كل مرة؟ الجواب لا نجده في منطق التاريخ وحده، بل في منطق الأسطورة. فالكتب العادية تعيش وتموت بنسخها، أما العزيف فقد صُمم منذ البداية ليكون كيانًا قائمًا بذاته. هو ليس نصًا فقط، بل عقدٌ بين اللغة والهاوية. من يقرأه يغذيه بوعيه، فيتجدد كما تتجدد الكائنات الطفيلية على دم العائل.

ولهذا السبب، يمكن النظر إلى تاريخه كفيلم فلسفي غامض: في كل مشهد، يحاول البشر أن يحرقوه، فينهض من الرماد. يحاولون أن يترجموه، فيتخذ لغة جديدة. يحاولون أن يحظروا تلاوته، فيزداد انتشارًا. وكأن الكتاب يملك إرادة خاصة، لا ليبقى محفوظًا، بل ليبقى حاضرًا كتهديد.

الخاتمة: النسخة التي بين أيدينا

اليوم، بعد قرون من الترحال، نواجه النسخة التي بين أيدينا. يقال إنها تلك النسخة الأصلية التي نجت من الحريق العظيم. ما الذي يضمن لنا ذلك؟ لا شيء. لكن المفارقة أن الكتاب لا يحتاج إلى دليل مادي على وجوده؛ حضوره في الوعي الجمعي يكفي.

إنه كتاب يتغذى على الخوف، وكلما ازداد البشر خوفًا منه، ازداد قوةً وبقاءً. ربما لهذا السبب لم يختفِ قط: لأنه ليس مجرد أثر، بل مرآة للجانب المظلم في النفس البشرية، ذاك الذي يبحث عن الأسرار ولو كانت مهلكة.

الفصل الخامس

عبد الحظرد – جاني أم ضحية؟

حين نقف أمام سيرة عبد الحظرد، فإننا لا نواجه مجرد شخصيةٍ تاريخية أو شاعرٍ متمرّد، بل نواجه سؤالًا وجوديًا أعمق: ما حدود المعرفة التي يستطيع الإنسان أن يقترب منها قبل أن تحترق روحه؟ هل كل سعي إلى الماوراء خطيئة، أم أنّه جوهر الإنسان ذاته؟ إن هذه الأسئلة هي التي تجعل من الحظرد ليس مجرد رجلٍ عاش في القرن الثامن، بل رمزًا خالدًا للباحث الذي تجاوز حدود العقل، فصار بين النبوّة والهرطقة، بين المجد واللعنة.

الإنسان الذي رأى ما لا يُرى

إن أبرز ما يميّز عبد الحظرد أنّه لم يرضَ بما تراه أعين البشر عادة. لقد اقتحم الصحراء، وسمع أصوات العزيف، ورأى مدنًا مطموسة مثل إرم ذات العماد. ثم عاد ليكتب *العزيف*، الذي لم يكن كتابًا للمعرفة وحدها، بل شهادة على الرعب الكوني.

من هذه الزاوية، يمكن القول إنه كان "نبيًا" بالمعنى الأوسع: أي رسولًا من وراء الحجب، نقل إلى الناس رسالةً لم يطلبوها، ولم يستطيعوا احتمالها. غير أنّ الفرق بينه وبين الأنبياء أنّه لم يأتِ بخلاص، بل جاء بتهديد، لم يأتِ بطمأنينة، بل جاء برعبٍ لا يوصف. لقد كان نبيًا من نوع آخر: نبيّ الهاوية.

الهرطقة التي لا تُغتفر

لكن في الوقت نفسه، لا يمكن تجاهل حقيقة أنّه تجاوز كل الخطوط التي رسمتها الأديان. فالأنبياء يردّون كل شيء إلى إلهٍ واحد رحيم، بينما هو تحدّث عن كياناتٍ لا اسم لها في كتب التوحيد، كيانات أزلية تترصّد البشر من وراء النجوم. بهذا المعنى، لم يكن مجرد شاعر مهووس، بل مهرطقًا بالمعنى الحاسم للكلمة، إذ فتح أبوابًا اعتبرها الناس محرّمة منذ الأزل.

إنّ الهرطقة في حالتِه لم تكن مجرد خروج عن الدين، بل كانت تحديًا لهيكل المعرفة الإنسانية كلّه. لقد مزّق الحدود بين العلم والسحر، بين العقل والجنون، بين الإنسان وما وراءه.

الضحية التي اصطادتها المعرفة

ومع ذلك، هل كان عبد الحظرد واعيًا تمامًا بما فعل؟ أم أنه كان ضحية لقوةٍ أكبر منه؟ لقد وصف بنفسه – في ما تبقى من شهادته – أنه كان مطاردًا من كيانات لا ترحم، وأنه لم يكتب بإرادته الكاملة، بل بدافعٍ من إكراه داخلي. ربما كانت اللغة القديمة التي اكتشفها ليست اكتشافًا بالمعنى المعتاد، بل استدعاءً قسريًا من قوى وجدت فيه قناةً للعبور.

هنا يطلّ وجه الضحية: رجلٌ لم يطلب إلا المعرفة، فإذا به يصبح أداة للهاوية. لقد رأى ما لا ينبغي أن يُرى، فانكسر، وترك وراءه كتابًا يظل لعنة على كل من يقرؤه.

بين الجناية والضحية

إذا تأملنا صورته النهائية، نجد أنفسنا أمام مفارقة لا تُحلّ:

- من جهة، هو **جاني**: لأنه فتح أبوابًا لم يكن للبشر أن يطرقوها، واستدعى قوى لم يكن أحد مستعدًا لمواجهتها. لقد جعل اللغة نفسها سلاحًا، وجعل الكلمات أبوابًا للخراب.
- ومن جهة أخرى، هو **ضحية**: لأن هذا الطريق لم يختره بكامل إرادته، بل دُفع إليه بدافعٍ من قدرٍ غامض. لقد كان أداة في يد قوى أكبر، تمامًا كما يكون العابد الصادق أداة في يد الوحي.

هكذا يجمع عبد الحظرد بين الصورتين: هو المجرم الذي ارتكب جريمة فتح الهاوية، وهو الشهيد الذي احترق بنارها قبل غيره.

العزيف كمرآة للإنسان

لكن ما قيمة هذه السيرة بالنسبة لنا اليوم؟ إنها تكشف أنّ الإنسان في جوهره لا يكتفي بالمعرفة المأمونة. هناك دومًا شغف بالممنوع، توق إلى السرّ، رغبة في كسر الحجب. والعزيف ليس إلا مرآة لهذه الرغبة. إنه ليس كتابًا منفصلًا عن البشر، بل انعكاسٌ لجنونهم الخفي، لعطشهم الذي لا يرتوي إلى الماوراء.

من يقرأ سيرة الحظرد يرى نفسه في مرآةٍ مشوهة: يرى الإنسان الباحث عن الحقيقة، لكنه يراها وقد انقلبت إلى رعب. في هذا تكمن قيمة الحظرد: أنه ليس مجرد شخصية ماضية، بل رمزٌ أبدي للمعرفة الملعونة.

النهاية: سؤال مفتوح

مات عبد الحظرد في دمشق، بين أنياب كائن غير مرئي التهمه في وضح النهار. لكن موته لم يكن نهاية، بل بداية أسطورة استمرت حتى اليوم. والكتاب الذي خلّفه، *العزيف*، ما يزال يتنفس بين المكتبات، كأنّه يذكّرنا بأنّ السؤال لم يُحسم بعد: هل كان عبد الحظرد جانيًا أم ضحية؟

ربما كان كلاهما. وربما كان شيئًا آخر: رمزًا للإنسانية ذاتها، في لحظة اندفاعها القصوى نحو المجهول. الإنسان الذي لا يكتفي بالحدود، بل يحطمها ولو قادته إلى الهاوية.

وفي النهاية، يظل صدى صوته يتردد عبر القرون، كما كتب في شهادته:

"لقد وجدتُ الخوف... لقد وجدتُ البوابة المؤدية إلى الخارج، والتي يحرسها القدماء."

هذه الجملة وحدها كافية لتختصر حياته: رجلٌ وجد البوابة، لكن الثمن كان أن يبتلعه الحارس.

خاتمة:

في نهاية هذه السيرة، لا يعود عبد الله الحظرد مجرد اسمٍ يطاردنا من كتب التاريخ والأساطير، بل يتحول إلى رمز أبدي لمعضلة الإنسان الكبرى: كيف نواجه الغموض؟ هل نكتفي بما هو ظاهر، أم نغامر باقتحام ما وراء الستار؟

لقد أرانا الحظرد أنّ الفضول البشري قد يبلغ حدّ الانتحار. فالفضول، حين يتجاوز الحكمة، قد يصبح لعنةً تفتح بواباتٍ لا عودة منها. ومع ذلك، فإنّ هذا الفضول ذاته هو ما يجعل الإنسان كائنًا متفردًا. فبينما تسير الكائنات الأخرى وفق غرائزها المحدودة، يظل الإنسان الكائن الوحيد الذي يغامر بالسؤال: *ما الذي يكمن هناك؟* ، حتى لو قاده السؤال إلى الهاوية.

ربما تكون أعظم حكمة في هذه السيرة أنّنا لسنا وحدنا في الكون. إنّ محدوديتنا أمام الماوراء ليست ضعفًا، بل روعة في ذاتها. فما لا نراه قد يكون أجمل من أن نراه، وما لا ندركه قد يكون أكثر رحمة من أن نحمله في وعينا. إنّ الحدود ليست قيدًا فحسب، بل حماية أيضًا.

في قلب هذا التوازن يتأرجح الإنسان: بين شغفٍ يقوده إلى اكتشاف الماورائيات، وخوفٍ يعيده إلى دفء المعلوم. وما بينهما يولد الشعر والفلسفة والدين. فكلها محاولات لإعطاء معنى لذلك الغموض الذي يظل أوسع من كل عقل.

إنّ عبد الله الحظرد كان صورةً مكثفة لهذه المعضلة: رجلًا دخل في مغامرة خارج حسابات كل منطق، فدفع حياته ثمنًا. لكنه في المقابل ترك لنا درسًا أبديًا: أنّ الإنسان سيظل، رغم المحن، باحثًا لا يهدأ، يفتش عن المعنى وراء الغموض، ويسمّي هذه المحنة مغامرة.

وإذا كان الحظرد قد فتح بابًا للهاوية، فإنّ جوهر رسالته ليس أن نسلك طريقه، بل أن ندرك أنّ وراء كل بابٍ مغلق سرًّا، وأنّ الحكمة الحقيقية ليست في فتح كل الأبواب، بل في معرفة أيّها يستحق أن يُفتح، وأيّها يجب أن يُترك مغلقًا.

وهكذا، يظل الإنسان الكائن العجيب، الذي يوازن بين الخوف والفضول، بين الرغبة في المعرفة والحاجة إلى النجاة. وسواء اعتبرنا الحظرد نبيًّا أو مهرطقًا، ضحية أو جانيًا، فإنّ صوته يذكّرنا بأنّ الغموض ليس عدوًّا، بل شرطٌ للحياة، وأنّنا في سعينا وراء الماورائيات إنما نبحث عن ذواتنا في مرآة لا تنكسر.

حاشية زائدة

في أثر عبد الله الحظرد

من العجيب أن بعض السير ترفض أن تُطوى، وأن بعض الأسماء، مهما حاول التاريخ أن يحجبها، تظل تتسرب إلى الذاكرة الجمعية كالماء المتسلل من بين الصخور. ومن بين هذه الأسماء، يقف اسم **عبد الله الحظرد**، ذلك الشاعر اليمني الذي تحوّل في المخيال البشري إلى ساحر مجنون، ومؤلف أخطر كتاب في التاريخ: *العزيف*.

لقد حظيت قصته بشهرة واسعة خاصة في القرن المنصرم، لا لأنها مجرد سيرة شاعر غريب الأطوار، بل لأنها – بما تحمل من طلاسم ورموز – صارت مرآةً لفضول البشر الدائم بالماورائيات. فالحظرد لم يكن مجرد رجل كتب نصوصًا غامضة، بل صار رمزًا للرعب الكوني، وصورةً لكيفية انجراف الإنسان وراء عطشه الذي لا يرتوي إلى المجهول.

1. بين الشعر والسحر

تجمع الروايات على أن الحظرد وُلد في صنعاء، في أسرة ميسورة، وأنه نشأ شاعرًا بارعًا، ملأ الدنيا شعرًا وغناءً، حتى لقبوه "شاعر اليمن الأول". غير أن هذا المجد لم يرضِ طموحه. لقد أراد أن يخترق مجالًا آخر، أن يتجاوز أفق الكلمة الموزونة إلى أفق الكلمة السحرية. ومن هنا بدأت رحلة التحول: من شاعر يُطرب الناس إلى رجل يُرعبهم.

دخل الصحراء، وغاب عن الأعين عشر سنوات كاملة. عاد بعدها بوجه آخر: وجه من يدّعي أنّه تكلّم مع كائنات لا يراها البشر، واستمع منها إلى أسرار الأزمنة الغابرة. لم يعد شاعرًا، بل "العربي المجنون"، الممسوس بعلومٍ لا يطيقها بشر.

2. الجنون كعتبة للمعرفة

في المرويات الشعبية، يُقال إن الجنون هو ما أصابه عند بلوغه الثلاثين. لكنه جنون خاص: لم يكن فقدان عقل، بل انفتاحًا على عوالم لا تحتملها العقول المعتادة. لقد اعتقد أنّ فهم الماضي سيسمح بتوقع المستقبل وتفسير الحاضر، ورأى أن السبيل إلى ذلك لا يكون بالكتب المألوفة، بل بالحوار مع كائناتٍ أزلية. هذه الفكرة – مهما بدت مجنونة – هي لبّ كل ما سيتبعها: أن الإنسان قد يغامر بالاتصال بغير المرئي، وأن المعرفة قد تأتي من وراء حدود الطبيعة. إنه منطق الجنون بمعناه الفلسفي: تخطي النظام السائد بحثًا عن نظام أعمق، حتى لو كان ثمنه الانهيار.

3. *العزيف*: الكتاب الملعون

في تلك العزلة كتب الحظرد كتابه الأشهر: *العزيف*. لم يكن كتابًا في التاريخ كما أراد أن يوهم معاصريه، بل كتابًا يجمع بين التعاويذ واللقاءات مع كيانات غامضة. وصف فيه محادثاته مع الجن والأرواح، وكتب عن مخلوقات "ستعود لتسترد حقها المسلوب في حكم الأرض".

من بين ما احتواه الكتاب قصص عن تزاوج الجن بالبشر، وإنجاب نسلٍ من الشياطين الذين نشروا الفساد قبل أن يطهّر الطوفان الأرض منهم. احتوى أيضًا على إشارات لبوابات بين العوالم، وأوقات مخصوصة يمكن عندها الانتقال بين عالم الإنسان وعالم الكائنات الأُخرى.

لكن أخطر ما في *العزيف* أنه لم يكتبه كحكاية، بل كتعويذة. كل صفحة منه كانت مفتاحًا، وكل رمز دعوةً. ولهذا لم يتعامل معه الناس كنص جامد، بل كقوة حيّة.

4. الانتشار والمنع

لم يكد الكتاب ينتشر حتى أثار الرعب في كل مكان. انتشر كما انتشرت من بعده كتب مثل *شمس المعارف*، لكن *العزيف* تميز بغطائه التاريخي المزعوم. سرعان ما تجاوز حدود اليمن، ووصل إلى مراكز العلم والدين.

غير أنّ الفاتيكان كان الحاجز الأكبر. حين وصل الكتاب إلى أبواب روما، أصدر البابا أمرًا بمصادرته وحرقه، وحرّم على أي مسيحي تداوله. كانت تلك لحظة مفصلية: أن يُحظر كتاب في قلب المسيحية يعني أنه يحمل تهديدًا يفوق ما تحتمله العقيدة.

ولم يتوقف الأمر عند الفاتيكان. فقد توالت قرارات المنع في دول عديدة، حتى صار الكتاب مطاردًا كجريمة. اختفت نسخه تدريجيًا، حتى لم يبقَ منه إلا القليل. ويُقال إن النسخة العربية الأصلية فُقدت، ولم تبق إلا ترجمة إنجليزية يتداولها بعض السحرة والباحثين سرًا.

5. النهاية المأساوية

كما كانت حياة الحظرد غامضة، كانت نهايته أعجب. تقول الروايات إن الكائنات التي كشف أسرارها غضبت منه، فانتقمت. ظهر له وحش هائل في وضح النهار أمام الناس، فالتهمه واختفى. لم يبق منه سوى الدماء وآثار الرعب في عيون الشهود.

روايات أخرى تزعم أنه خُنق على يد قوى غير بشرية، وأن آثار الأيدي على عنقه لم تكن أيدي إنسان. أياً كانت الرواية، فإن نهايته كانت تليق بحياته: نهاية في قلب الغموض، تشبه اختفاء كتابه، وتحوّل اسمه إلى لعنة.

6. الفلسفة الكامنة وراء الحكاية

قد يكتفي البعض بالنظر إلى الحظرد كساحرٍ مجنون، أو شاعرٍ ضل طريقه. لكن الأعمق أن نقرأه كرمز. فهو صورة للإنسان الذي يغامر بالاقتراب من الهاوية. إنه يجسد حقيقة أن الفضول البشري قد يقود إلى المحنة، وأن الرغبة في المعرفة المطلقة قد تكون بابًا للهلاك.

إنّ الحظرد و*العزيف* ليسا مجرد أثرين تاريخيين، بل مرآة لعطش البشرية إلى ما وراء الطبيعة. لقد صارا رمزًا للرعب الكوني: ذاك الشعور بأننا لسنا وحدنا في الكون، وأن هناك قوى أزلية لا تعبأ بنا، تنتظر بصبر أن تستعيد حكمها.

إنّ ما يرد في المرويات الأجنبية – خاصة العبرية والغربية – يضفي على الحظرد بعدًا إضافيًا: أنه ليس مجرد شخصية محلية، بل أيقونة عالمية للرعب. في هذه المرويات يظهر *العزيف* ككتاب يحوي أسرار القدماء: "القدماء كانوا، والقدماء هم، والقدماء سيكونون. يوغ سوثوث هو البوابة والمفتاح وحارسها. الماضي والحاضر والمستقبل واحد فيه."

بهذا يصبح الكتاب رمزًا للمعرفة المحظورة، والإنسان الذي كتبه رمزًا للثمن الذي يدفعه من يتجاوز حدود العقل.

7. الحقيقة والأسطورة

هل كان الحظرد شخصية حقيقية، أم مجرد أسطورة نُسجت حول اسم شاعر يمني؟ وهل وُجد *العزيف* فعلًا، أم أنه اختراع لاحق نُسب إليه؟ هذه الأسئلة ستظل مفتوحة. فالتاريخ نفسه يبدو متواطئًا على إخفاء الحقيقة.

لكن الأهم من الإجابة هو أثر الحكاية. فسواء كان الحظرد حقيقيًا أم لا، فإن اسمه صار رمزًا. وسواء وُجد *العزيف* أم لا، فإن حضوره في المخيلة البشرية أقوى من أي مخطوط.

8. الدرس الأخير

في النهاية، يظل عبد الله الحظرد تجسيدًا لمفارقة الإنسان: الكائن الذي لا يرضى بالحدود، والذي يرى في المجهول دعوة دائمة. لكنه أيضًا الكائن الذي قد يدمّره هذا الفضول. فالمغامرة قد تكون أحيانًا حكمة، وأحيانًا انتحارًا.

الحظرد هو الوجه الآخر للإنسان: شاعرٌ وحكيم، ساحرٌ ومجنون، نبيٌّ ومهرطق، ضحيةٌ وجانٍ. ومن خلاله نتعلم أن الماوراء ليس مجرد موضوع للفضول، بل اختبار للحكمة: هل نجرؤ على فتح كل باب، أم نكتفي بأن نعلم أن هناك أبوابًا يجب أن تظل مغلقة؟

وهكذا تبقى سيرته – بكل ما فيها من تناقض – حاشية على الوجود الإنساني ذاته.

محيي الدين إبراهيم

القاهرة في 5 سبتمبر 2025